

## الأدب الجاهلي بين البيئتين الطبيعية والاجتماعية

مهدي ممتحن\*

### الملخص

الشعر هو الذي يشهد على أثر خالقه وصوره الزمينة والمكانية. فالشاعر لم يقدر على أن يبتعد عن مجتمعه وبيئته الاجتماعية والطبيعية وهو جزء منها، لأنه عاش معها مادامت بجانبه، وهو لسان القبيلة والملوك وهو الذي يدافع عن قبيلته أمام القبائل الأخرى ويحتمل أعمالها في جميع الأمور وفي الترحال والسفر ويستأنس بجبال الأرض التي يعيش فيها ويتلذذ من صحراءها وبحارها ووديانها في طبيعته، ولذلك كان الشاعر يعتبر عند العرب في العصر الجاهلي رئيس القبيلة وأميرها، ولم يكن لهم علم أصح منه، كما كان ذا معرفة بالأنساب ومعالي الأخلاق، وليست مهمته كالمؤرخ بل أهم منه وهو مخزون من حيث المعارف ولذا قيل: إن الشعر الجاهلي لم يسم إلى الذروة العليا التي بلغها الشاعر إلا لكونه صادقاً لبيئته الجاهلية.

الكلمات الدلالية: الشعر الجاهلي، الطبيعة، الزواج، البحار، المثقب العبدى.

\* أستاذ مشارك بجامعة آزاد الإسلامية في جيرفت (دانشيار دانشگاه آزاد اسلامی واحد جيرفت).

## الشعر وتأثيره على البيئة

إن الشعر كما قاله ابن سلام يدل على معالى الأخلاق وصواب الرأى ومعرفة الأنساب. (الجمعى، ١٩١٣م، ج١: ٢٤) والفارابى يعتقد بأن: «الأقاويل الشعرية هى التى تؤلف من أشياء محاكية للأمد الذى فيه القول أو أنها توقع فى ذهن السامعين المحاكى للشىء.» (الروبى، لاتا: ٧١)

فالشعر صورة فنية موازية لحياة أصحابه وبئيتهم وهى تختزن فى عباراتها أفكارهم وعاداتهم وأنسابهم ومشاعرهم فى كل زمان.

فالشعر الجاهلى هو الذى يحكى عن بيئة الشاعر وقبيلته، لأن الأرض التى يعيش فيه هو موطنه، والأحداث التى تجرى فيها هى خواطر وذكريات مشاعره ولهذا نحن عندما نسمع كلمات الشاعر التى تغنى بالبيئة نحسّ كل شىء عن طبيعته ومجتمعه ونشهد التجربة التى مر بها الشاعر ونقلها إلينا فى صورته واقعا فنياً وفكرياً بأى شكل كان.

فمن ذلك نرى الشعراء إذا صعب عليهم إنشاد الشعر، انفردوا فى حياتهم، وأخذوا يسيرون فى شعاب الجبال وبطون الأودية والأماكن الخربة حتى يصبحوا قادرين على إنشاد الشعر. فمن هؤلاء نرى امرء القيس من الشعراء الجاهليين والفرزوق من الشعراء الأمويين كانوا ينزحون من مكان إلى آخر ويحلون فيها كى يصوروا مشاهداتهم للبيئتين الصامتة والمتحركة، ولذلك نرى الشعراء غالباً يذكرون الرحيل والترحال والانتقال وتوقع البين والأشفاق منه وصفة الطلول والحمول والتشوق بحنين الإبل، ولمع البروق ومرّ النسيم وذكر المياه التى يلتقون عليها والرياض التى يحلون بها (القيروانى، ٢٠٠٤م: ٢٢٥). فالبيئة هى منبع الإلهام الشعرى ومحملاً لجملة من الأفكار والمشاعر.

فنى المسيب بن علس البكرى والمتلمس وعبيد بن الأبرص الأسدى قد عاشوا فى مناطق بحرية وبرية ولم ينسوا ما أولاه هناك من آثار وترحال كما عاش طرفة بن العبد فى البحرين وبها دفن وأنشد ما رآه فى بيئته. (محمد شاكر، ١٩٦٤م، ج١: ١٧٤)



### الشعر الجاهلي وتأثيره على البيئتين الاجتماعية والعائلية

إن البيئة الجاهلية هيمنت على مشاعر البدوي وأفكاره وتدخلت في تكوينها وصياغتها حسب ما تقتضيه، ودفعت به إلى حياة تنسجم مع ما تفرضه عليه، فكان منفعلاً معها، فعاداته وقيمه مصوغة على ما قدمته في البرّ والبحر وفي مجتمعه ولذلك نراه منفرداً في بعض خصائصه بين القبائل الأخرى منها:

### الزواج وتأثيره في البيئة الجاهلية

كان الزواج يعتمد على أحد من الأنواع الثلاثة في الجاهلية وهو زواج المقت وزواج الأخيذة وزواج الاستبضاع.

فأما زواج المقت فهو أن الإبن كان يرث زوج الأب المتوفى، فيتخذها زوجاً له، أو يعقلها حتى تموت، أو ترد إليه صداقها، وللوارث أن يفعل ذلك بزواج المتوفى، إذا القى عليها ثوبه قبل أن تذهب إلى أهلها. (هبو، ١٩٨٠م: ٥٣٤)

وقد عده أوس بن حجر التميمي نكاحاً منافياً لخصوصية المجتمع الجاهلي فأخذ يهجو قوماً قائلاً:

فكلهم لأبيه ضيزن<sup>١</sup> سلفُ

(المصدر نفسه: ٥٣٤)

فالاتفاق بين أكثر الأدباء والقبائل الجاهلية هو أن زواج المقت مبنئ على الإكراه وليس في الشعر الجاهلي ما يدل على متانة العلاقة بين طرفي زواج المقت فإن زواج المقت فيه استهانةً بمشاعر الزوجية، فلا خطبة فيه ولا مهر.

زواج الأخيذة<sup>٢</sup>: أما زواج الأخيذة فهي سبيبة صريحة النسب، يتخذها آسرها زوجةً له أو يجعلها زوجة أقربائه، فالأخيذة تكره على الزواج بغير خطبة ولا مهر ومن الشعر الدال على ذلك قول الحطّية يمدح ابن حصن الفرازي قائلاً:

١. الضيزن الذي يزاحم أباه في امرأته وقوله سلف يقول الرجل منهم يأتي أمه وخالته فهو ضيزن لأبيه بالأم وسلف له بالخالة ويروى والفارسية فيكم غير منكرة يخاطبهم بذلك والسلف زوج أخت امرأة الرجل يقال هو سلفه وظأمه وظأبه.

٢. الأخيذة هي المرأة الأسيرة.

وبكر فلاها من نعيم غريرة<sup>١</sup>  
يقلن لها لا تجرعى أن تبدد لي  
مصاحبة على الكراهين فارِك  
بأهلك أهلاً والخطوب كذلك

(الخطيئة، ١٩٨٧: ١٢٣)

إن المديح السابق يُبين كراهة الأخيذة لمن تجبر على مصاحبته، فهي مكرهة على أن تستبدل بأهلها أهل آسرها وهذه من خطوب الحياة الجاهلية القاسية وزواج الأخيذة يمنحها حقوق زوجة البعولة عدا حق الحرية في مفارقة زوجها فهي مكرمة ومنعمة، تحتلظ بنساء قبيلة زوجها وآسرها وكأنها واحدة منهن ونسبت إلى حاتم الطائي أبيات واضحة الدلالة على ذلك منها قوله:

وما أنكحونا طائعين بناتهم  
فما زادها فينا السباء مذلةً  
ولكن خلطنها بخير نساءنا  
وكائن ترى فينا من أبي سبيّة  
ولكن خطبناها بأسيفنا قسرا  
ولا كلفت خبزاً ولا طبخت قدرا  
فجاءت بهم بيضاً وجوههم زهرا  
إذا لقي الأبطال يطعنهم شزرا

(الطائي، ١٩٩٠م: ٢٨٣)

أما زواج الاستبضاع، فهو نوع غريب من الزواج، وهو أن تقدم المرأة أو تجبر عليه طلباً لنجابهة الولد، فتستطرق رجلاً قوباً شجاعاً كريماً غير بعلمها، أملاً في إنجاب ولدٍ مثله وهذا النوع من الزواج لم يكن شائعاً بين القبائل الجاهلية فكما يُقال إن أخت لقمان كانت تلد لزوجها أولاداً ضعافاً، فاحتالت على أخيها لقمان فأسكرته واندست له، وقيل إنها ولدت منه ولداً سمته لقيماً، وكان أحزم الناس، وذلك في قول النمر:

لُقيمُ بن لقمان من أخته  
ليالي حُمق فاستحصنت  
فأحبها رجل نابة  
فكان ابن أخت له وابنما  
إليه فغرّ بها مُظلما  
فجاءت به رجلاً مُحكما

(النمر بن تولى، ١٩٦٩م: ١٠٦)

١. الغريرة هي التي لم تجرّب شيئاً.



و من بيت للخنساء، قولاً في رثاء أخيها:

لكنّ أخى أروع ذو مَرّةٍ      من مثله تستبضعُ الباغية

(الخنساء، ١٩٨٦م: ٣٢٢)

### إنجاب الأبناء ورعايتهم في البيئة الجاهلية

إن لزواج البعولة غاية رئيسة محددة، وهي المحافظة على استمرار الوجود الإنساني بالإنجاب، ولما كان المجتمع الجاهلي مقروناً بالصراعات، فقد حرصوا على إنجاب الأبناء الأقوياء وعلى تربيتهم تربية كاملة في جسد قوى يستطيع الابن أن يقابل العدو بكلّ قدرة، ويتحدى الطبيعة القاسية، ومن أجل ذلك كان البعل يختار ذات الحسب والنسب ليقرن بها لاعتقاده بقدرتها على توريث القوة الجسدية والبدنية لأبنائها وعلى تربيته يتمثلون بها قيم مجتمعهم ويتلو اختيار الزوجة الوقت المناسب للحمل، فقد اعتقد الجاهليون أن الزوجة إذا حملت وهي فزعة ومكرهة على طرق بعلها إياها فجاءت بغلام لا يطاق، ومن جيّد الشعر على ذلك قول أبي كبير الهذلي يصف صاحباً له:

ولقد سريتُ على الظلام بمغشم      جلدٍ من الفتيان غير مُهَبَلٍ  
فما حملن به وهنَّ عواقدٌ      حُبُك الثياب فشد غير مُثَقَلٍ  
حملت به في ليلةٍ مزوودةٍ      كَرُهاً وعقد نطاقها لم يُحَلَلٍ  
فأتت به حوش الجنان مُبَطَّنًا      سُهْدًا إذا ما نامَ ليلُ الهَوَجَلِ

(السكري، ١٩٦٥م: ١٠٧٣)

ثم يُضيف أبوكبير صفات أخرى تلزم الاستكمال قوة المولود الجسدية قائلاً:

ومُبْرأً من كلِّ غيرِ حيضةٍ      وفسادٍ مرضعةٍ وداءِ ā

ويبين السكري شرح البيت السابق أنّ الأم لم تحمل على مولودها، فنسقيه الغيل<sup>١</sup> وأنّه لم يُصب بداءٍ شديدٍ معضل، فالأسرة الزوجية تنزع إلى إنجاب الأبناء الأقوياء باختيار أسلوب الحمل المناسب وتغذية المولود بلبنٍ اعتقدت بلزومه لصحة الأبناء.

١. الغيل هو اللبن الذي ترضعه المرأة ولدها.

وكانت الأسرة الزوجية تطمح إلى أن يشب أبناءها على مثال ترتضيه وفي هذا الأمر ما قالته الشعراء منهم قول هند بنت عتبة و هي ترقص ابنها معاوية:

إِنَّ بَنِي مُعْرِقٍ كَرِيمٍ      مُحَبَّبٌ فِي أَهْلِهِ حَلِيمٌ  
لَيْسَ بِفَحَّاشٍ وَلَا لَيْئِمٍ      وَلَا بِطُخْرُورٍ وَلَا سَوْومٍ  
صَخْرَ بَنِي فَهْرٍ بِهِ زَعِيمٍ      لَا يَخْلِفُ الظَّنَّ وَلَا يَخِيمُ

(القالبي، لاتا، ج ٢: ١١٦)

وشبيه ذلك أبيات لصفية بنت عبدالمطلب في ابنها الزبير بن العوام، تبين فيها أنها تحسن تربية ابنها وأنها تقدم على ضربه ليعقل وليشب رجلاً جواداً شجاعاً. (المصعب الزبيري، ١٩٨٥م: ٢٣٠)

وزعمت أم عمرو بن كلثوم التغلبي أنها ولدت غلاماً وسمته عمراً، فلما أتت عليه سنة، قالت أتاني ذلك الآتي في الليل أعرفه، فأشار إلى الصبي وقال:

إِنِّي زَعِيمٌ لِكِ أُمِّ عَمْرٍو      بِمَا جَدَّ الْجَدِّ كَرِيمِ النَّجْرِ  
أَشْجَعُ مِنْ ذِي لَبِيدٍ هَزَبِ      وَقَاصِّ أَقْرَانِ شَدِيدِ الْأَسْرِ  
يَسُودُهُمْ فِي خَمْسَةِ وَعَشْرِ

(الاصفهاني، لاتا، ج ١: ٤٠)

فقال الأخذر لقد ساد وهو ابن خمسة عشر ومات وله مائة وخمسون سنة.

### نشأة الأولاد والبنات

من الأمور المهمة في نشأة الأطفال وتربيتهم أن الأعراب في الجاهلية كانوا يهتمون بالأبناء الذكور دون الإناث، ولم يذكر الشعر الجاهلي هذا الأمر إلا في قول أمية بن أبي الصلت وهو يعاتب ابنه قائلاً:

غذوتك مولوداً وعُلتك يافعاً      تُعَلُّ بِمَا أَدْنَى عَلَيْكَ وَتَنْهَلُ  
إِذَا لَيْلَةٌ نَابِتِكَ بِالشُّكُو لَمْ أَبْتِ      لِشُكُوَاكِ إِلَّا سَاهِرًا أَتَمَلَّمُ  
كَأَنِّي أَنَا الْمَطْرُوقُ دُونَكَ بِالذِّي      طَرَقَتْ بِهِ دُونِي وَعَيْنِي تُهْمَلُ



تخافُ الردى نفسى عليك وإِنَّها لتعلم بأنَّ الموت حتمٌ مؤجَّلٌ

(أمية بن أبي الصلت، لاتا: ٤٣٠)

ولقد صور الأعشى تعلق البنات بالآباء حين يزمعون الرحيل، فها هي ابنته تنظر إليه، وقد رأفت لحظة ارتحاله، فتدعو ربها أن يحفظ والدها من الأوجاع والآلام، وكانت قد بذلت جهدها لتمنع أباه عن الارتحال، ولكن مطالب الحياة كانت أقوى من العواطف، فارتحل الأب، وهو يدعو لابنته تحمل ما دعت له، ويوصيها بأن تستخبر عنه وتتنظر إياه وأنشد حول هذا قائلاً:

تقول بنتى وقد قربت مرتحلاً	ياربِّ جنبِّ أبى الأوصاب والوجعا
واستشفعت من سراة الحى ذا شرفٍ	فقد عصاها أبوها والذى شفعا
مهلاً بُنىَّ فإنَّ المرءَ يبعثه	همُّ إذا خالط الحيزوم والضُّلعا
كونى كمثل التى إن غاب وافدها	أهدت له من بعيد نظرةً جزعا
ولا تكونى كمن لا يرتجى أوباً	لذى اغترابٍ ولا يرجو له رجعا

(الأعشى، ١٩٩٢م: ١٩٩)

### البيئة الطبيعية وأهميتها فى الشعر الجاهلي

إنَّ الظواهر الاجتماعية والفكرية التى صاغت البيئة الطبيعية لبلاد العرب فى إطارها المناسب كظاهرة الكرم والفروسية وحماية الطعائن والمرأة والمحافظة على النسب والشرف وإغاثة الملهوف ونصرة الضعيف وذم البخل واللؤم والجبن والفرار وغيرها كانت من العادات المألوفة عند البدوى. (طرّاد، لاتا: ٧٥)

فإنَّ أهمَّ ظاهرةٍ فرضتها البيئة على حياة الأعراب هى ظاهرة النُجعة وكان الأعراب ينتقلون من محاضرهم التى اتخذوها وطناً إلى منازل بالبادية تسعة أشهر طلباً للكلا والماء، وكانت رحلتهم تبدأ نحو الرابع عشر من آب أو أغسطس. (ابن قتيبة، ١٣٥٦ق:

(١٠٠)

فالقبايل العربية كانت تنزل من تلك المناطق فى أضلاطٍ شتى فى الشعر الجاهلي

والمقدمة الطللية هي أكثر مقاطع القصيدة الجاهلية دلالةً على مدى تأثير البيئة البدوية وبرز هذا التأثير واضحاً في وحدة العادات والتقاليد والقيم واللغة والتّفافه والمشاعر كما تحدث عند المثقب العبدى<sup>١</sup> (فروخ، ١٩٨٤م، ج ١: ٦٠)

أفاطم قبل بينك متعيني      ومنعك ماسألت كأن تبيني  
فقلت لبعضهن وشدّ رحلي      لهاجرة نصبت لها جيني  
إذا ما قمت أرحلها بليل      تأوه آهة الرجل الحزين  
أكلّ الدهر حلّ وارتحال؟      أما يُبقي عليّ وما يقيني

ففرى المثقب العبدى في أبياتٍ أخرى يستبشر ناقته على أنّها ستصل إلى مناجع جديدة فيها العشب والكلأ والماء، فهو في سباق مع الزمن، ليتهلل بمرأى الضيف ويسرع ليختار أحسن إبله لينحرها قائلاً:

فلما أتاني والسماء تبّله      تقول له أهلاً وسهلاً ومرحبا  
وقمتُ إلى البرك الهواجد فاتقت      بكوماء لم يترك لها النّي مهربا

(المثقب العبدى، ١٩٧١م: ١٩٥٦)

فشدة الريح وهطول المطر زادت من إصرار المثقب على إكرام ضيفه، وكان العربي البدوي لا يبخل بما عنده على ضيفه، وفيه يختار احترام الجار وحفظ حرمة ويفتخر بنفسه في هذه الأحوال منتشراً. (فروخ، ١٩٨٤م: ١٦٢)

لا تقولن إذا ما لم ترد      أن تُتمّ الوعد في شيء «نعم»  
حسن قول «نعم» من بعد «لا»      و قبيح قول «لا» بعد «نعم»  
إنّ «لا» بعد «نعم» فاحشة      فب «لا» أبداً إذا خفت الندم  
لا يُبالي طيب النفس به      تلف المال إذا الحر في سلم

١. المثقب العبدى، هو أبو عمرو بن ربيعة بن نزار وكانت مساكن قومه في البحرين. كانت وفاته عام (٣٥هـ - ٥٨٧م) وهو أقدم من النابغة. المثقب شاعر مجيد، غريب الألفاظ، متين التراكيب جداً وأعراض شعره يدور على المدح والفخر والحكمة والطرده ووصف الراحلة، له قصيدة بارعة مدحها ابن سلام، وقال ابن قتيبة كان أبو عمرو يستجيد هذه القصيدة ولوجب على الناس أن يتعلموه والقصيدة طويلة. (فروخ، ١٩٨٤م، ج ١: ١٦٠)





أكرم الجارَ وارعى حقه      إن عرفان الفتى الحقّ كرم  
اجعل المال لِعرضي جنةً      إنّ خير المال ما أدى الذّم

فهذه هي صورة فنية لأحد شعراء الجاهلية يبيّن فيها بيئته الاجتماعية في تنمية ظاهرة الكرم وتعزيزها في النفوس، وتوحي هذه الصورة بأن الحياة الاجتماعية غير منفردة، ولقلة الموارد الطبيعية والمائية أباَح في شريعتهم الغزو والسلب، وافتخر بذلك كثيرٌ من شعراء الجاهلية بهذه الصفة، فكلّ واحدٍ منهم يصفُ فروسيته وانتصاره على خصمه و لو جبن أو ضعُف لنالَ منه خصمه كما يقول بعض الشعراء:

فلم أنكل و لم أجبن ولكن      شددت على أبي عمرو بن عمرو  
تركتُ الرمحَ يبرقُ في صلاه      كأن سنانَه خرطوم نسرٍ

(الضبي، لاتا: ٧١)

فهو يؤكد على فروسيته ويفتخر بقومه وينصرهم على عدو قوى وشديد يديمُ في قوله قائلاً:

فأنك لو رأيت غداة جئنا      ببطن أثالَ ضاحية نسوقُ  
مشينا شطرنهم ومشوا إلينا      وقلنا اليوم ما تقضى الحقوق

### الخيال ذو أهميته في البئية الطبيعية

إن الخيل هو حصن العربي ودرعه في حياته يحتمى من ضربات السيوف وطعنات الرماح، ولهذا نرى الأصيل العتيق كان يصنع له شجرة أنساب ولاعيب للعربي في أن يؤثره على نفسه وأهله في أوقات العسرة، وكانت العرب تهنيء بعضها البعض بنتاجها، وأخذ كلّ منهم يصف فرسه في حالة خاصة منها وصف امرئ القيس منشداً:

وقد أغتدى، والطير في وكناتها      بمنجردٍ، قيد الأوابد هيكل  
مكرٌ، مفرٌ، مُقبل، مُدبر، معا      كجلمود صخرٍ حطّه السيل من علٍ  
كُميتٍ، يزلّ اللبدّ عن حال متنه      كما زلت الصفواء بالمتنزل  
له أيطلا ظبي وساقا نعامه      وإرخاء سرحان، وتقريب تتلّ

كَأَنَّ دَمَاءَ الْهَادِيَاتِ بَنَحْرِهِ      عَصَاةَ حَنَاءٍ بِشَيْبٍ مُرَجَّلٍ  
فِعَادَى عِدَاءٍ بَيْنِ ثَوْرٍ وَنَعْجَةٍ      دِرَاكَا وَلَمْ يَنْضَحْ بِمَاءٍ فَيَغْسِلِ  
فَبَاتَ عَلَيْهِ سَرَجُهُ وَلِجَامِهِ      وَبَاتَ بَعِينِي قَائِمًا، غَيْرَ مُرْسَلِ

(شيخو، لاتا، ج: ١: ٣٦)

ويصف شاعرٌ آخرٌ فرسه وهو طرفة بن البعد وصفاً جميلاً ورائعاً بقوله مُنشدًا:

وَهُمْ مَا هُمْ، إِذَا مَا لَبَسُوا      نَسَجَ دَاوُدُ لِبَاسٍ مُحْتَضِرٍ  
وَتَسَاقَى الْقَوْمِ كَأَسَا مَرَّةً      وَعَلَا الْخَيْلُ دَمَاءً كَالشَّقْرِ

ويصفها آخر وهو عنتر بن شداد ويفتخر بفرسه وخيله بشكل آخر وهي من

صفات البيئة الطبيعية التي يعيش فيها البدوي والحضري قائلًا. (المصدر نفسه: ٧٠)

وَالْخَيْلُ تَقْتَحِمُ الْخَبَارَ عَوَاسًا      مِنْ بَيْنِ شَيْظَمَةٍ وَأَجْرَدِ شَيْظَمٍ  
وَلَقَدْ خَشِيتُ بَأْنَ أَمُوتَ وَلَمْ تَدِرْ      لِلْحَرْبِ دَائِرَةً عَلَى ابْنِي ضَمُضَمٍ

يُريد به أن ذلك كان في وقتٍ تجرى خيلنا الطويلة العليلة الشعر الكالحة الوجوه

في أرض رخوة فيها قوائمها، فتسير بصعوبة. (المصدر نفسه: ١٦١)

### البيئة الطبيعية البرية

#### الف - البيئة الصامتة

كان الشعراء الجاهليون يتحدثون عن الطبيعة الصامتة والمتحركة بجبالها وسهولها وحرّها ومطرها ومواقعها وشجرها ونباتاتها، فأينما لاحت لهم صورة ممتزجة بحياتهم ومشاعرهم جعلوها مادة لغتهم، فتأثروا بها. والشاعر الجاهلي كان يتغنى ببيئته الطبيعية ويسوق ذلك في إطار هدفه الذي يسعى إليه في موضوعات قصيدته ولهذا حفلت المقدمات الظلمية ومشاهد الرحلة والحيوان خاصةً بصور كثيرة ومثيرة للبيئة الطبيعية، فالشاعر يسوق في سرد تتغنى رحلة الضعائن من موضع إلى موضع آخر وهي تصعد ربوة أو تغيب في واد فينخلع قلبه من جنبه ظناً به أنه لم يرها بعد، فعينه تظلّ ترصد مرورها كما يقول زهير بن أبي سلمى في معلقته:



تبصّر خليلي، هل ترى من ضعائن  
علونَ بأنماطٍ عتاقٍ و كِلَّةٍ  
تحمّلن بالعلياء من فوق جُرْثُم؟  
وراد حواشيهَا، مشاكهة الدم  
وجعلن القنان عن يمينٍ وحرنه  
وكم بالقنان من محلٍّ ومُحرَم

(شيخو، لاتا، ج: ١: ٨٤)

أما الحديث عن الحرّ والقرّ فلم يكن طويلاً ولا مقصوداً لذاته والعكس عند قصيدة  
الشنفرى حين يقول:

ويوم من الشعري، يذوبُ لعابُه  
نصبتُ له وجهي، ولا كنّ دونه  
أفاعيه، في رمضائه، تتلملُمُ  
ولا سترَ إلاّ الأتخميّ المرعبُ

(المصدر نفسه: ١١)

والشعري هو كوكب في الجوزاء في ليالي الحرّ، واللعباب ما نراه في شدة الحرّ، مثل  
نسج العنكبوت، والرمضاء الأرض الحارة من وقع الشمس عليها ويقول في البيتين:  
ورُبَّ يومٍ من الأيام التي تطلع فيه الشعري، وكان قد اشتد فيه الحرّ وثارَت على الأرض  
هبوات النار حتى لا تكاد الأفاعي تستقرّ على رمضائه لشدة حرارتها، كنتُ أنصبُ وجهي  
لأشعة الشمس، ولا يسترنني عنها سترٌ ولا وقاية إلاّ بُردُ حَلِقٍ. (الشنفرى، ١٩٩٣م: ٦٢)  
والوصف الذي يذكر فيه المطر والبرق والرعد لم يكن على المستوى الفني الذي لدى  
بعض الجاهليين، كما مرّ القيس مثلاً حين يقول:

أصاح ترى برقاً أريك وميضه  
على قطن، بالبشيم، أيمنُ صوته  
كلمع اليدين في حبيّ مَكَلَلٍ  
وأيسره على الستار، فيذبلُ  
ومرّ على القنان من نفيانه  
فأنزل منه العُصم من كلّ منزل

(شيخو، لاتا، ج: ١: ٣٩)

وهناك ثعلبة بن عمرو يصوّر لنا درعاً متألّثةً فيقتنص من صورة الغدير الذي ضربته  
الريح مثلاً لذلك وأضاف صورةً أخرى حين جعل السماء تدفع بشآبيب الغيث في وقت  
الصيف، وقدأ برز لآلئ الماء هبوب الريح عليه كما يقول:

بيضاء مثل النّهي ريح ومدّه  
شآبيب غيث يحفش الأكم صائف

(الضبي، لاتا: ٢٨٢)

## ب - البيئة المتحركة

دخلت صورة البيئة المتحركة والحياة في نسيج الحياة الجاهلية، فشكلت أثراً واقعياً وفنياً، وأخذت تشمل ما كان في الحركة في حياته من الإبل والأنعام والخيول والمطر والبرق... إلخ.

فالبيئة الطبيعية الحية والجامدة، لم تكن عند الشاعر هدفاً لذاته ولا أصلاً لسواه من الأهداف كما توهم بعض الباحثين.

فالشعراء الجاهليون استطاعوا أن ينقلوا بأصالة ودقة وبراعة تفاعلهم الخلاق مع بيئتهم القديم والجديدة ونجحوا في تحميل ناقثهم لطلب النجعة. فالشعراء كلهم إن كانوا من شبه جزيرة العرب أو من الخليج الفارسي فقد أبدعوا الواقع الفني من صميم الواقع الطبيعي لقول المثنبي العبدى:

أجذك ما يدريك أن رُبَّ بلدةٍ	إذا الشمسُ في الأيام طال ركودُها
وصاحت صوايح النهار وأعرضت	لوامع يُطوى رِيظُها و برودُها
على طرقٍ عند الأراكة رِيّةٍ	توازي شريم البحر وهو قعيدها

(المصدر السابق: ١٢٠)

## البيئة البحرية

إنّ دراسة البيئة البرية الصامتة والمتحركة كشفت لنا بأن الأثر الفني في صورته وجوهه للأثر الطبيعي تصوير رائع، وأن كل شاعرٍ استمد منه لوحاته المؤثرة، وهنا نرى الشعراء قد صوروا لنا البيئة البحرية بكل فكرثاقب، فكلّ من امرئ القيس والمثنبي العبدى وطرفة والمرّقس، قد صوروا لنا تصاوير جميلة عن البحر فمنها القصيدة النونية للمثنبي العبدى والتي فيها حديث جميل عن صناعة السفن وحركتها اللينة السريعة في الماء مشبها الضعائن بها قائلاً:

وهنّ كذلك حين قطعن فلجاً	كأنّ حمولهنّ على سفين
يُشبهنّ السفينَ وهنّ بُختُ	عُرَاضَاتُ الأَبَاهِرِ وَالشُّوونِ



كَأَنَّ الْكُورَ وَالْأَنْسَاعَ مِنْهَا      عَلَى قُرْوَاءَ مَاهِرَةٍ دَهِينِ  
يَشْقُ الْمَاءَ جَوْجُوهَا وَيَعْلُو      غَوَارِبَ كُلِّ ذِي حَدَبٍ بَطِينِ

(المصدر نفسه: ٢٤٤)

وهذا طرفة يصفُ جملة بالسفينة الكبرى التي تجرى على البحر قائلاً:

عدوليةٍ أو من سفينِ ابنِ يامنٍ      يجور بها الملاحُ طوراً ويهتدى  
يشق حباب الماء حيزومها بها      كما قَسَمَ التُّرْبَ المَفَائِلُ باليدِ

(التبريزي، ٢٠٠١م: ١٠٦)

وينفرد المسيب بن علس الضبعي في تصوير البحارة وركوب البحر والغوص على اللؤلؤ، فقد وصف حكاية أربعة بحارة غامروا بحياتهم في سبيل واحد، ورسم لنا فيها لوحة بارعة ومثيرة لحياتهم ومشاعرهم وقد وصف صاحبتة بالجمانة التي جاء بها أولئك الغواصين، قائلاً:

كجمانة البحري جاء بها      غواصها من لجة البحر  
صلبُ الفؤاد رئيسُ أربعة      متخالفى الألوان والنجر  
و غلت بهم سجحاءُ خادمة      تهوى بهم في لجة البحر  
حتى إذا ما ساءَ ظنهم      ومضى بهم شهر إلى شهر  
ألقي مراسيهِ بتهلكة      ثبتت مراسيها فما تجرى  
فأصاب منيته فجاءَ بها      صدفية كمضيئة الجمر  
يُعطي بها ثمناً فيمنعها      ويقول صاحبه، ألا تشرى  
فتلك شبه المالكية إذ      طلعت ببهجتها من الخدر

(البغدادى، لاتا، ج: ١: ١٧٤)

فقد مثل صاحبتة المالكية بالجمانة وهو كرئيس البحارة الذي يريد اصطياد تلك الجمانة. أما حديث عبید بن الأبرص فقد ساقه عن البيئة البحرية سياقاً آخر يلبي رغبته وهدفه في الافتخار بشعره وقدرته على اصطياد شوارده، فكان بهذا منفرداً من دون الشعراء الجاهلين، وظلّ كالمسيب في تفصيل صورة البحر إذ تتبع بحسّ الفنان الأصيل

لحركة السمك وقدرته على المناورة في لُجّ البحر، فحياته في الماء وموته بخروجه منه، وحياة عبيد تكمن في الشعر، وينتهي في قصيدته إلى تصوير طريف لدرعه الملساء اللامعة الصافية، القوية النسج، الخالية من الشوائب، فيجعل صورة الحوت لها شبهاً منشداً بذلك:

بحور الشعر أو غاصوا مغاصي	سل الشعراء هل سبحوا كسبحي
وبالأسجاع أمهرُ في الغياص	لساني بالثبير وبالقوافي
يُجيدُ السّبح في لُججِ المغاصِ	من الحوتِ الذي في لُجّ بحر
إذا أخرجتهنَّ من المداصِ	بنات الماء ليس لها حياةٌ
تناصص تحتها أيّ انتعاصِ	إذا قبضت عليه الكف حيناً
وحوتُ البحرِ أسودُ ذو ملاصِ	وباصٍ ولاصٍ من ملصٍ ملاصِ
نُسجِنَ تلاحمَ السردِ الدلاصِ	كلون الماءِ أسودُ ذو قشورِ

(الأبرص، لاتا: ٧٦)

### النتيجة

إن مشاهد البيئة الطبيعية في القصيدة الجاهلية لها خصائص الشعر الجاهلي بسماته الواقعية والحسية وتبرز ظاهرة النجعة والرحيل بوضوح في أشعارهم فنحن لانشك في أنّ الشعراء خلدوا للطبيعة وتأثروا بها وتمثلوها في ذواتهم واختزنوها صوراً مؤثرة، فتغنوا بها، فجاءت قصائدهم منسجمة مع أغراضهم في أثر فني ممتع ومؤثر يحمل عظمة التجربة الواقعية وينطوي على دلالات زمينة ومكانية ونفسية وفكرية.

فشعراء الجاهلية تغنوا بالبادية فلاةً وسهلاً وجبلاً، كما قال امرؤ القيس:

كأنّ ثبيراً في عرانيين وبله      كبير أناسٍ في بجادٍ مزمَلٍ

(شيخو، لاتا، ج: ١: ٣٧)

ولما استقروا في منطقتهم أخلصوا لها فنقلوها في الإطار المدني الجديد الذي انتهوا إليه فصبغت حياتهم وفنهم بأساليب خاصة.



فإننا نرى مشاهد البيئة الطبيعية لم تكن أكثر إبداعاً من البيئة البرية والجوية فهم وصفوا السفن وركوب البحر. فالبيئة الطبيعية تعدّ شكلاً من أشكال التعلّق بالوطن من الأرض والقبيلة ونظام حياتها، فلذلك أصبحت البيئة الطبيعية في الشعر الجاهلي فطرية ومجتمعة وإن تباينت في بعض صفاتها وطرائق تناولها، وقد أخلص أبناء كل بيئة لبيئتهم دون أن يهملوا ما اخترنوه من صور البيئات العربية التي عاشوا بها أو انتقلوا منها.

### المصادر والمراجع

ابن أبي الصلت، أمية. لاتا. ديوان أمية بن أبي الصلت. تحقيق عبدالحفيظ السطلي. دمشق: مكتبة أطلس.

ابن العبد، طرفة. ١٩٧٥م. ديوان طرفة. تحقيق درية الخطيب. دمشق: مطبوعات مجمع اللغة.

ابن حجر، أوس. لاتا. ديوان أوس. تحقيق محمد يوسف نجم. بيروت: دار صادر.

ابن عبدربه. ١٩٦٥م. العقد الفريد. تحقيق أحمد أمين. بيروت: دار الكتاب العربي.

ابن قتيبة. ١٣٥٦ هـ. ق. الأنواء في مواسم العرب. بغداد: دائرة المعارف اللقمانية.

ابن كلثوم، عمرو. ١٩٩١م. ديوان عمرو بن كلثوم. تحقيق علي أبو زيد. دمشق: دار سعدالدين.

أحمد فراج، عبدالستار. لاتا. ديوان أشعار الهذليين. القاهرة: مكتبة دارالعروبة.

الأصمعي. ١٩٦٤م. الأصمعيات. تحقيق أحمد محمد شاكر. مصر: دارالمعارف.

الأعشى. ١٩٩٢م. ديوان الأعشى. تحقيق حنا نصر. بيروت: دار الكتاب العربي.

امرؤ القيس. ١٩٩٠م. ديوان امرئ القيس. تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم. مصر: دارالمعارف.

التبريزي. ٢٠٠١م. شرح القصائد العشر. تحقيق مفيد قميحة. بيروت: مكتبة الهلال.

الجاحظ، عمرو بن بحر. لاتا. البيان والتبيين. تحقيق عبدالسلام هارون. بيروت: دارالكتب العلمية.

الجمحي، محمد بن سلام. ١٩١٢م. طبقات الشعراء. القاهرة: لانا.

الحطيئة. ١٩٨٧م. ديوان الحطيئة. تحقيق نعمان طه. القاهرة: مكتبة الخانجي.



- الحموي، ياقوت. ١٩٧٧م. معجم البلدان. بيروت: دار الفكر.
- الحوافي، أحمد محمد. ١٩٧٢م. الحياة العربية من الشعر الجاهلي. بيروت: دار القلم.
- الخنساء. ١٩٨٤م. ديوان الخنساء. تحقيق إبراهيم عوضين. مصر: مطبعة السعادة.
- الشنفرى. ١٩٦١م. ديوان الشنفرى. تحقيق كلال حرب. دمشق: المطبعة المعبادية.
- \_\_\_\_\_. ١٩٩٣م. ديوان الشنفرى. تحقيق عبدالعزيز الميمنى. بيروت: دار الكتب العلمية.
- ضيف، شوقي. ١٩٧١م. الأدب الجاهلي. مصر: دار المعارف.
- الطائي، حاتم. ١٩٩٠م. ديوان شعر حاتم الطائي وأخباره. تحقيق عادل سليمان. القاهرة: مكتبة الخانجي.
- العوار، عادل. لاتا. الشعر الجاهلي. القاهرة: الدار القومية للطباعة.
- فروخ، عمر. ١٩٨٤م. تاريخ الأدب العربي. بيروت: دار العلم للملايين.
- القالبي. لاتا. الأملالي. بيروت: دار الكتاب العربي.
- القيرواني، ابن رشيقي. ١٩٩٥م. العمدة في محاسن الشعر. تحقيق محمد محيي الدين. مصر: مطبعة السعادة.
- المتقّب العبدى. ١٩٧١م. ديوان المتقّب العبدى. تحقيق كامل الصيرفي. مصر: الشركة المصرية.
- المصعب الزبيرى. ١٩٨٥م. نسب قريش. مصر: دار المعارف.
- المفضل الضبي. ١٩٨٧م. ديوان اختيارات المفضل. تحقيق فخرالدين قباوة. بيروت: دار الكتب العلمية.
- نصرت، عبدالرحمن. ١٩٨٢م. الصورة الفنية في الشعر الجاهلي. عمان: مكتبة العلوم.
- النمرين تولب. لاتا. ديوان النمر بن تولب. تحقيق نوري حمودي. بغداد: مطبعة المعارف.
- هيو، أحمد. ١٩٨٠م. تاريخ العرب قبل الإسلام. جامعة حلب: مديرية الكتب والمطبوعات.

